# جماليات السرد في قصص التابعين: قراءة في البنية الفنية وتطور الرواية الدينية المبكرة

# *Narrative Aesthetics in the Stories of the Tābiʿūn: A Study of Artistic Structure and the Development of Early Religious Narrative*

**د. سمية أحمد ميدان حسين:** مدرس دكتور في قسم اللغة العربية، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة كركوك، العراق.

**Dr. Sumayah Ahmed Medan Hussein**: Assistant Doctor, Department of Arabic Language, Faculty of Education for Humanities, University of Kirkuk, Iraq.

Email: Sumaya.ahmed@uokirkuk.edu.iq

Doi: https://doi.org/10.56989/benkj.v6i2.1761

تاريخ الاستلام: 2025-12-23 تاريخ القبول: 2026-01-13 تاريخ النشر 2026-02-01

**المستخلص**:

يتناول هذا البحث جماليات السرد في قصص التابعين، بوصفها أحد الأشكال التأسيسية للرواية الدينية المبكرة في الثقافة الإسلامية. ويهدف إلى الكشف عن البنية الفنية والأسلوبية التي تشكّلت من خلالها هذه القصص، وتحليل آليات بناء الحكاية، وتشكيل الشخصيات، وتوظيف الزمان والمكان، إضافة إلى دراسة خصائص اللغة السردية والحوار والإيقاع. وينطلق البحث من مقاربة سردية تحليلية، تراعي خصوصية الخطاب الديني وسياقه التاريخي والثقافي، وتتجنّب إسقاط المفاهيم النقدية الحديثة إسقاطًا آليًا. وقد توصّل البحث إلى أن قصص التابعين لا تقتصر على كونها أخبارًا تاريخية أو مواد وعظية، بل تمثّل نصوصًا سردية ذات جماليات خاصة، تقوم على التكثيف والوظيفة النموذجية للشخصيات، والبنية الخطّية الواضحة، والأسلوب اللغوي البسيط المؤثّر. كما يبيّن البحث أن هذه القصص أسهمت إسهامًا بارزًا في تطوّر السرد الإسلامي اللاحق، ولا سيما في كتب الزهد والسير والتراجم، مما يجعلها حلقة أساسية في تاريخ السرد العربي الإسلامي.

**الكلمات المفتاحية:** السرد الديني، قصص التابعين، الرواية الدينية المبكرة، البنية السردية، الأسلوب السردي، السرد الإسلامي.

**Abstract:**

This research addresses the aesthetics of narration in the stories of the Tabi‘un (the Successors), considering them as one of the foundational forms of early religious narrative in Islamic culture. It aims to uncover the artistic and stylistic structure through which these stories were shaped, analyze the mechanisms of plot construction, character formation, and the use of time and space, as well as examine the characteristics of narrative language, dialogue, and rhythm.

The study adopts an analytical narrative approach that takes into account the specificity of religious discourse and its historical and cultural context, while avoiding the automatic application of modern critical concepts. The research concludes that the stories of the Tabi‘un are not limited to being historical accounts or didactic materials; rather, they represent narrative texts with distinct aesthetic qualities, characterized by condensation, archetypal function of characters, clear linear structure, and simple yet impactful linguistic style.

Furthermore, the study demonstrates that these stories contributed significantly to the development of subsequent Islamic narrative, particularly in works of asceticism, biographies, and biographical dictionaries, making them a crucial link in the history of Arabic-Islamic narration.

**Keywords**: Religious Narrative, Stories of the Tābiʿūn, Early Islamic Narrative, Islamic Narrative, Narrative Structure, Narrative Style, Islamic Storytelling.

**المقدّمة:**

يحظى السرد الديني بمكانة محورية في الثقافة الإسلامية، إذ شكّل منذ المراحل الأولى أداة أساسية في نقل المعرفة الدينية، وترسيخ القيم الأخلاقية، وبناء الوعي الجمعي. وفي هذا السياق، تبرز قصص التابعين بوصفها مادة سردية غنية، نشأت في مرحلة انتقالية فاصلة بين عصر الرواية الشفوية وعصر التدوين، وبين الخبر التاريخي والحكاية ذات البعد الفني. وقد أسهم هذا الموقع الوسيط في منح القصص التابعية خصائص بنيوية وأسلوبية مميّزة، جعلتها تشكّل لبنة أساسية في تطوّر الرواية الدينية المبكرة.

ورغم الأهمية المعرفية لهذه القصص، فقد انصرفت أغلب الدراسات إلى تناولها من منظور تاريخي أو حديثي أو وعظي، في حين ظلّ تحليلها بوصفها نصوصًا سردية ذات بنية فنية وأساليب تعبيرية خاصّة محدودًا نسبيًا. ومن هنا تأتي هذه الدراسة لتعيد قراءة قصص التابعين قراءة سردية، تسعى إلى الكشف عن جماليات الحكاية، وتتبع تطوّر الأسلوب والبنية في سياق الرواية الدينية الإسلامية، مع مراعاة خصوصية الخطاب الديني وسياقه الثقافي.

**مشكلة البحث:**

تتمثّل مشكلة البحث في غياب رؤية نقدية سردية شاملة لقصص التابعين، قادرة على تجاوز الفصل التقليدي بين التاريخ والأدب، والكشف عن البنية الفنية والأسلوبية التي تحكم هذا النوع من السرد. وينطلق البحث من التساؤل الرئيس الآتي: **كيف تتجلّى جماليات السرد في قصص التابعين، وما ملامح البنية الفنية والأسلوبية التي أسهمت في تطوّر الرواية الدينية المبكرة؟**

ويتفرّع عن هذا التساؤل عدد من الأسئلة الفرعية، من أبرزها:

- ما خصائص السرد الديني المبكر التي انعكست في قصص التابعين؟
- كيف تُبنى الحكاية، وتُشكَّل الشخصيات، ويُوظَّف الزمان والمكان في هذه القصص؟
- ما سمات اللغة السردية والحوار والإيقاع في الرواية التابعية؟
- ما أثر قصص التابعين في تطوّر السرد الإسلامي في المراحل اللاحقة؟

**منهجية البحث:**

يعتمد البحث على المنهج التحليلي السردي بوصفه منهجًا رئيسًا، من خلال تفكيك البنية الحكائية، وتحليل العناصر السردية المكوّنة لقصص التابعين، مثل الحدث، والشخصيات، والزمان، والمكان، والأسلوب. كما يستعين البحث بالمنهج الوصفي التاريخي لتأطير النصوص ضمن سياقها

الثقافي والمعرفي، وبيان ظروف نشأتها وتدوينها. ويراعي البحث خصوصية النصوص الدينية، فيتجنّب إسقاط المفاهيم السردية الحديثة إسقاطًا آليًا، ويعمل على توظيفها توظيفًا إجرائيًا يتلاءم مع طبيعة السرد التابعي ووظائفه التعليمية والوعظية.

**أهمية البحث:**

تنبع أهمية هذا البحث من كونه يسهم في سدّ فجوة معرفية بين الدراسات التاريخية والدراسات الأدبية، من خلال مقاربة قصص التابعين بوصفها نصوصًا سردية مركّبة، لا مجرّد أخبار أو شواهد وعظية. كما تكمن أهميته في إبرازه للبعد الجمالي والفني في السرد الديني المبكر، بما يعزّز فهم تطوّر السرد العربي الإسلامي، ويفتح آفاقًا جديدة لدراسة العلاقة بين الدين والأدب في التراث الإسلامي.

وتتجلّى أهمية البحث كذلك في إسهامه في توسيع دائرة تطبيق المناهج السردية الحديثة على نصوص تراثية، معلومٌ أنها لم تُنتَج في سياق أدبي خالص، مما يساعد على إعادة تقييم هذه النصوص بعيدًا عن الأحكام المسبقة التي تحصرها في بعدها التعليمي أو الوعظي فقط.

**هيكل البحث:**

- المقدمة
- المبحث الأول: الإطار المفاهيمي والسياق العام للسرد التابعي
- المبحث الثاني: جماليات البنية الفنية في قصص التابعين
- المبحث الثالث: الأسلوب السردي وتطوّر الرواية الدينية المبكرة
- الخاتمة.

## المبحث الأول: الإطار المفاهيمي والسياق العام للسرد التابعي

### المطلب الأول: مفهوم السرد الديني المبكر وخصائصه

يُعدّ السرد الديني المبكر أحد أقدم أشكال التعبير الحكائي في الثقافة الإسلامية، وقد نشأ في سياق معرفي وثقافي خاص، كانت فيه الرواية وسيلة أساسية لنقل العلم، وترسيخ القيم، وبناء الوعي الجمعي. ولم يكن السرد في هذه المرحلة يُنظر إليه بوصفه فنًا مستقلًا، بل باعتباره أداة لنقل المعنى الديني، سواء في صورة خبر، أو أثر، أو قصة ذات عبرة. ومن ثمّ، فإن مفهوم السرد الديني المبكر لا ينفصل عن مفهوم الرواية في معناها الإسلامي العام، القائم على النقل، والتوثيق، وربط القول بالفعل والموقف (إبراهيم، 2010، الصفحات 87–90).

يحيل السرد الديني المبكر، في جوهره، إلى فعل الحكي المؤطّر بمنظومة قيمية وأخلاقية واضحة، حيث تتقدّم المقصدية التعليمية والوعظية على الاعتبارات الجمالية الخالصة. غير أن هذا التقدّم الوظيفي لا يعني غياب البعد الفني، بل يدلّ على نمط خاص من التشكيل السردي، تتداخل فيه البساطة مع التكثيف، والوضوح مع الإيحاء. وقد نبّه النقّاد المعاصرون إلى أن كثيرًا من النصوص الدينية المبكرة تمتلك بنية حكائية واضحة، حتى وإن لم تُصنَّف في زمنها ضمن جنس أدبي مستقل (الغذامي، 2006، صفحة 108).

ويتأسس السرد الديني المبكر على مفهوم «الخبر» بوصفه الوحدة الأساسية للحكي، حيث يُنظر إلى القصة على أنها نقل لواقعة ذات دلالة، لا اختراعًا تخيليًا. فالخبر في الثقافة الإسلامية يحمل قيمة معرفية وأخلاقية في آنٍ واحد، ويُشترط فيه الصدق، والاتصال، وسلامة النقل. غير أن تطوّر عملية الرواية، وانتقالها من الشفوية إلى التدوين، أسهم في توسيع البنية الخبرية، وإكسابها طابعًا سرديًا أوضح، يظهر في ترتيب الأحداث، وبناء المشاهد، وإدخال الحوار، وإن ظلّ ذلك كلّه محكومًا بسقف المرجعية الدينية (حسين ط.، 2018، صفحة 43).

ومن الخصائص المركزية للسرد الديني المبكر حضوره ضمن خطاب جمعي، لا ذاتي. فالراوي لا يعبّر عن تجربة شخصية، بل ينقل نموذجًا يُراد له أن يكون مثالًا يُحتذى أو تحذيرًا يُتجنّب. ولذلك يغيب الصوت الفردي لصالح صوت الجماعة، وتتراجع النزعة النفسية لصالح التركيز على الفعل والموقف والنتيجة الأخلاقية. ويُسهم هذا الطابع الجمعي في جعل السرد أداة لإعادة إنتاج القيم السائدة، وتثبيتها في الوعي الاجتماعي، لا مجرد تسجيل محايد للأحداث (الجابري، 2023، صفحة 255).

كما يتّسم السرد الديني المبكر بالاقتصاد اللغوي، وهو اقتصاد نابع من طبيعة الثقافة الشفوية التي سادت في القرون الأولى. فالجملة السردية غالبًا ما تكون قصيرة ومباشرة، خالية من الزخرف اللفظي، لكنها مشحونة بالدلالة. ويُلاحظ أن هذا التكثيف لا يُضعف الأثر الجمالي، بل يمنح السرد قوة إيحائية عالية، إذ تتحوّل الكلمة القليلة إلى حامل لمعنى واسع، ويُترك للقارئ أو السامع أن يستنبط العبرة من السياق العام للحكاية (ضيف، 1995، صفحة 21).

ويبرز في هذا السياق حضور الإيقاع السردي بوصفه عنصرًا فاعلًا في تشكيل المعنى، حيث تتتابع الجمل في نسق منتظم، يُقارب أحيانًا الإيقاع الخطابي أو الوعظي. ويُسهم هذا الإيقاع في تثبيت القصة في الذاكرة، وجعلها قابلة للتداول والحفظ، وهو ما يفسّر شيوع بعض القصص التابعية وانتشارها في كتب الزهد والرقائق (عباس، فن السيرة، 2011، صفحة 52).

وبناءً على ما تقدّم، يمكن القول إن السرد الديني المبكر ليس مجرّد مرحلة بدائية في تاريخ السرد العربي، بل هو خطاب مركّب، تتداخل فيه الوظيفة الدينية مع التشكيل الفني، ويؤسّس لوعي

سردي خاص، سيترك أثره العميق في تطوّر الرواية الدينية، وكتب السير والتراجم، والأدب الوعظي في العصور اللاحقة. ومن هنا تنبع أهمية دراسته، ولا سيما في نماذج قصص التابعين، بوصفها نصوصًا تؤسّس لجماليات سردية كامنة خلف بساطة الشكل ووضوح المقصد.

**المطلب الثاني: قصص التابعين ومصادرها التاريخية والأدبية**

تُعدّ قصص التابعين من أكثر المواد السردية ثراءً في التراث الإسلامي المبكر، ليس فقط لما تحمله من مضامين دينية وأخلاقية، بل لما تكشف عنه من آليات تشكّل السرد في مرحلة لم تستقر فيها بعدُ معايير التصنيف بين التاريخ والأدب. فهذه القصص لم تُدوَّن في الغالب بوصفها «قصصًا» بالمعنى الفني، وإنما جاءت متناثرة في ثنايا كتب الحديث، والتفسير، والزهد، والطبقات، والتراجم، وهو ما يفرض على الباحث التعامل معها بوصفها خطابًا عابرًا للأجناس، تشكّل في سياق معرفي مركّب (عباس، 2011، صفحة 41).

ينتمي التابعون، من حيث الموقع الزمني والمعرفي، إلى جيلٍ تلقّى المعرفة الدينية عن الصحابة مباشرة، وأسهم في نقلها إلى الأجيال اللاحقة، وهو ما جعل أخبارهم تحظى بقيمة علمية ورمزية عالية. وقد انعكس هذا الموقع الوسيط في طبيعة القصص المنسوبة إليهم، إذ جاءت محمّلة بوظيفة مزدوجة: حفظ النموذج السلوكي من جهة، وتكريس سلطة المرجعية الدينية الناشئة من جهة أخرى. ولذلك، فإن قصص التابعين لا تُفهم بمعزل عن موقعها داخل منظومة الرواية الإسلامية الكبرى (الجابري، 2023، صفحة 249).

وتُعدّ كتب الحديث من أقدم المصادر التي احتوت على أخبار التابعين وقصصهم، حيث وردت هذه القصص غالبًا في سياق الشرح، أو الاستشهاد، أو بيان المواقف العملية للأحكام الشرعية. ولم يكن الهدف من إدراج هذه الأخبار سرد الحكاية لذاتها، بل دعم المعنى الفقهي أو الأخلاقي، وهو ما يفسّر الطابع الموجز لكثير من هذه القصص. ومع ذلك، فإن هذا الإدراج الوظيفي لم يمنع تشكّل بنية سردية واضحة، تظهر في ترتيب الحدث، وتحديد الشخصيات، والخاتمة ذات الدلالة (صالح، 2013، الصفحات 121–125).

إلى جانب كتب الحديث، تحتل كتب التفسير موقعًا مهمًا في حفظ القصص التابعية، خاصة تلك المرتبطة بأسباب النزول أو بشرح الآيات ذات البعد القصصي. ففي هذا السياق، تتحوّل القصة التابعية إلى أداة تفسيرية، تُستخدم لتقريب المعنى القرآني إلى ذهن المتلقي، عبر ربط النص المقدّس بتجربة إنسانية واقعية. ويُلاحظ أن هذا النوع من القصص يميل إلى التركيز على الحدث الدال، دون توسّع في التفاصيل، بما ينسجم مع وظيفة التفسير القائمة على الإيضاح لا الاستطراد (الذهبي، 2015، الصفحات 189–192).

أما كتب الطبقات والتراجم، فتُعدّ من أغزر المصادر التي حفظت قصص التابعين، حيث شكّلت السيرة الفردية إطارًا جامعًا تُدرج داخله الأخبار والمواقف والقصص. وفي هذا السياق، تأخذ القصة التابعية طابعًا أكثر سردية، إذ تُروى ضمن مسار حياة الشخصية، وتُستخدم لإبراز صفاتها العلمية أو الأخلاقية أو الزهدية. وقد أسهم هذا الإطار الترجمي في منح القصص نوعًا من الوحدة الموضوعية، وربطها ببنية سردية أوسع تتجاوز الحدث المفرد (ابن سعد، 2017، صفحة 5).

وتبرز كتب الزهد والرقائق بوصفها حاضنة أساسية للسرد التابعي، حيث انتقلت القصة من وظيفة التوثيق إلى وظيفة التأثير الوجداني. ففي هذه الكتب، يُعاد توظيف أخبار التابعين وقصصهم لتشكيل خطاب وعظي يستهدف القلب والسلوك، لا العقل الفقهي فحسب. ويُلاحظ أن القصص في هذا السياق تميل إلى إبراز مظاهر الزهد، والبكاء، والخوف من الآخرة، ومجاهدة النفس، مع عناية خاصة بلحظات التحوّل الروحي، كالتوبة أو الاحتضار (الأصفهاني، 2023، صفحة 3).

ولا تقتصر مصادر قصص التابعين على المصنّفات الدينية الصرفة، بل تمتدّ إلى بعض كتب الأدب العام، ولا سيما كتب المواعظ والحِكم، حيث تُستعاد القصص التابعية في سياق أدبي أكثر تحرّرًا من قيود الإسناد الصارم. وفي هذا الانتقال، تتعرّض القصة أحيانًا لإعادة صياغة، أو اختزال، أو تضخيم بعض العناصر الدلالية، بما يخدم الغرض البلاغي أو الوعظي. ويكشف هذا التداخل عن مرونة السرد التابعي وقدرته على التكيّف مع سياقات خطابية متعدّدة (ضيف، 1995، صفحة 37).

ويثير تنوّع مصادر قصص التابعين إشكالية منهجية تتعلّق بدرجات التوثيق والضبط، إذ تختلف معايير القبول بين كتب الحديث، التي تشترط الإسناد والعدالة، وكتب الأدب، التي تركّز على المعنى والأثر. وقد أدّى هذا الاختلاف إلى تباين الروايات، وتعدّد الصيغ السردية للقصة الواحدة، وهو ما يضع الباحث أمام ضرورة التمييز بين القيمة التاريخية للقصة والقيمة السردية لها، دون إقصاء أحد البعدين (أركون، 1990، صفحة 71).

ومن خلال هذا الاستعراض، يتبيّن أن قصص التابعين لا تنتمي إلى مصدر واحد ولا إلى جنس معرفي واحد، بل تشكّلت في فضاء نصّي مفتوح، تداخلت فيه الرواية التاريخية مع الوعظ الديني، والتدوين العلمي مع الصياغة الأدبية. وهذا التعدّد في المصادر لا يُعدّ ضعفًا في القيمة العلمية، بل يمثّل ثراءً سرديًا يتيح للباحث قراءة هذه القصص بوصفها نصوصًا مركّبة، تحمل آثار السياقات التي وُلدت فيها، وانتقلت عبرها.

وبناءً على ذلك، فإن دراسة مصادر قصص التابعين لا تهدف إلى حصرها أو تصنيفها فحسب، بل إلى الكشف عن مسارات تشكّلها، وتحولات صياغتها، ووظائفها المتغيّرة داخل الخطاب

الإسلامي المبكر. وهو ما يمهّد للانتقال إلى المطلب الثالث، الذي يتناول جدلية التاريخ والأدب في هذه القصص، بوصفها الإشكالية المركزية في فهم جماليات السرد التابعي.

**المطلب الثالث: قصص التابعين بين التاريخ والأدب**

تُثير قصص التابعين إشكالية معرفية ومنهجية دقيقة تتعلّق بطبيعتها النصيّة، وموقعها بين التاريخ والأدب، إذ يصعب تصنيفها تصنيفًا حاسمًا ضمن أحد الحقلين دون الآخر. فهي من جهة أخبار تُنقل عن شخصيات تاريخية حقيقية، عاشت في زمن محدّد، وارتبطت بأحداث وسياقات سياسية واجتماعية معروفة، ومن جهة أخرى نصوص حكائية ذات بناء سردي واضح، تقوم على الانتقاء، والتكثيف، وصناعة المشهد، وتوجيه الدلالة. وهذا التداخل يجعل من قصص التابعين نموذجًا مبكرًا لنصّ هجين، تتقاطع فيه الوظيفة التوثيقية مع النزعة التعبيرية (عباس، 2011، صفحة 47).

ينطلق البعد التاريخي في قصص التابعين من اعتمادها على مبدأ الرواية، الذي يشترط الاتصال في النقل، ويمنح الخبر مشروعيته المعرفية. فالأصل في هذه القصص أنها نُقلت بوصفها أخبارًا ذات قيمة علمية، سواء في باب السلوك، أو الفقه، أو الزهد، أو المواقف من السلطة. وقد أسهم هذا الأصل في ترسيخ نزعة التوثيق، حيث يُذكر الراوي، ويُحدَّد السياق، وتُربط القصة بشخصية معروفة في سجلّ التاريخ الإسلامي. غير أن هذا الحرص على التوثيق لم يكن دائمًا غاية في ذاته، بل كان وسيلة لضمان صدقية المعنى وتأثيره (ابن خلدون، 2004، صفحة 15).

في المقابل، يكشف التأمّل في الصياغة الداخلية لهذه القصص عن حضور واضح للعناصر السردية التي تتجاوز مجرّد التسجيل التاريخي. فالقصة التابعية لا تورد الحدث في شموليته الزمنية، بل تنتقي منه لحظة دالّة، غالبًا ما تكون لحظة مواجهة، أو اختبار، أو تحوّل روحي. ويُعاد ترتيب هذه اللحظة داخل بنية حكائية تبدأ بتمهيد مختصر، يتبعه الحدث المركزي، ثم تنتهي بخاتمة ذات طابع تقويمي أو وعظي. وهذا البناء لا يخلو من قصد فني، حتى وإن لم يكن وعيًا جماليًا بالمعنى الاصطلاحي الحديث (يقطين، 1989، صفحة 63).

ويظهر البعد الأدبي في قصص التابعين كذلك من خلال التركيز على الشخصيات بوصفها نماذج، لا أفرادًا تاريخيين بكل تعقيداتهم. فالشخصية التابعية تُقدَّم غالبًا في صورة العالم الزاهد، أو العابد الخائف، أو الناصح الجريء، وتُختزل صفاتها في بعد واحد يخدم الدلالة العامة للقصة. ويؤدي هذا الاختزال إلى تحويل الشخصية من كيان تاريخي متعدّد الأبعاد إلى رمز أخلاقي، وهو ما يُعدّ من أبرز سمات السرد الأدبي ذي النزعة التعليمية (ضيف، 1995، صفحة 28).

كما يتجلّى الطابع الأدبي في اعتماد الحوار بوصفه أداة مركزية في بناء القصة، حيث تُقدَّم المواقف من خلال تبادل كلامي قصير، مكثّف، يحمل شحنة دلالية عالية. وغالبًا ما يُبنى الحوار

على مفارقة، أو سؤال وجواب، أو مواجهة بين طرفين غير متكافئين، كالعالم والسلطان، أو الزاهد والدنيا. ويُسهم هذا الحوار في دفع السرد إلى الأمام، وفي إبراز الموقف الأخلاقي دون الحاجة إلى تعليق مباشر من الراوي (عباس، 1973، صفحة 41).

غير أن هذا الحضور للعناصر الأدبية لا يعني أن قصص التابعين تنفصل عن مرجعيتها التاريخية، بل يدلّ على نمط خاص من التمثيل التاريخي، يقوم على إعادة تشكيل الحدث بما يخدم المعنى والقيمة. فالتاريخ هنا لا يُروى بوصفه تسلسلًا زمنيًا شاملًا، بل بوصفه مخزونًا من الوقائع القابلة لإعادة التوظيف السردي. وقد نبّه عدد من الباحثين إلى أن هذا النمط من الكتابة التاريخية كان سائدًا في العصور الأولى، حيث لم يكن الفصل بين التاريخ والأدب قد تبلور بعد (الدوري، 2014، صفحة 33).

وتزداد هذه الجدلية تعقيدًا حين نلاحظ اختلاف صيغ الرواية للقصة الواحدة في المصادر المتعدّدة، إذ قد تُروى القصة بصيغة موجزة في كتاب حديث، ثم تُعاد صياغتها بتفصيل أكبر في كتاب زهد، ثم تظهر بصيغة أكثر بلاغية في كتاب أدب. ويكشف هذا التعدّد عن مرونة النص السردي، وقدرته على التكيّف مع الأفق المعرفي والجمالي لكل مصنّف. كما يكشف عن دور المؤلّف أو الجامع في توجيه القصة، من خلال الاختيار والحذف والترتيب (أركون، 1990، صفحة 74).

ويُلاحظ أن قصص التابعين، رغم انتمائها إلى سياق ديني صارم، لا تخلو من عناصر التأثير الوجداني، التي تُعدّ من صميم العمل الأدبي. فالبكاء، والخشوع، والخوف، والرجاء، والندم، مشاعر تتكرّر في هذه القصص، وتُستثمر لإحداث أثر في المتلقي. ويُسهم هذا البعد الوجداني في نقل القصة من مستوى الإخبار إلى مستوى التأثير، وهو ما يجعلها قريبة من الخطاب الأدبي الوعظي (الأصفهاني، 2023، صفحة 6).

## المبحث الثاني: جماليات البنية الفنية في قصص التابعين

### المطلب الأول: البنية السردية ومسار الحكاية

تتجلّى جماليات قصص التابعين، في أحد أهم أبعادها، في البنية السردية التي تنتظم من خلالها الحكاية، إذ لا تأتي هذه القصص في صورة أخبار مفكّكة أو وقائع متناثرة، بل تتشكّل في الغالب وفق مسار حكائي متماسك، تحكمه آليات تنظيم داخلية تمنح النص وحدته ودلالته. وعلى الرغم من أن القصد التعليمي والوعظي يظلّ حاضرًا بقوة، فإن ذلك لم يمنع من تشكّل بنية سردية واضحة، تقوم على ترتيب الأحداث، وانتقاء اللحظات الدالّة، وبناء مسار يقود المتلقي من التمهيد إلى الخاتمة (يقطين، 1989، صفحة 41).

تبدأ القصة التابعية غالبًا بتمهيد موجز يعرّف بالشخصية أو بالمقام الذي ستقع فيه الحكاية، وقد يأتي هذا التمهيد في صورة جملة خبرية بسيطة، أو نسبة القول إلى راوٍ موثوق، أو الإشارة إلى حال الشخصية ومكانتها العلمية أو الزهدية. ويؤدّي هذا الاستهلال وظيفة مزدوجة، إذ يرسّخ مصداقية الرواية من جهة، ويهيّئ المتلقي لتقبّل الحدث من جهة أخرى. ولا يهدف التمهيد إلى خلق تشويق فني بقدر ما يسعى إلى تثبيت الإطار المرجعي الذي ستُقرأ القصة في ضوئه (عباس، 2011، صفحة 55).

يعقب هذا التمهيد دخول القصة في الحدث المركزي، وهو الحدث الذي يشكّل محور الحكاية وسبب روايتها. وغالبًا ما يكون هذا الحدث موقفًا اختباريا، كمناظرة، أو مواجهة مع سلطان، أو تجربة توبة، أو لحظة خوف، أو بكاء من خشية الله. ويتميّز هذا الحدث بالتكثيف الشديد، إذ تُستبعد التفاصيل الثانوية، ويُركّز السرد على اللحظة التي تحمل أعلى شحنة دلالية. ويكشف هذا الاختيار عن وعي سردي يفضّل المعنى على الاستقصاء التاريخي، ويجعل من الحدث نقطة ارتكاز لبناء الدلالة الأخلاقية (ضيف، 1995، صفحة 25).

ويمضي مسار الحكاية في اتجاه خطّي واضح، حيث تتتابع الأفعال والأقوال وفق تسلسل زمني بسيط، يخلو في الغالب من الاسترجاع أو الاستباق. فالزمن السردي في قصص التابعين زمن تعليمي، لا يحتمل التعقيد البنائي، لأن الغاية هي إيصال المعنى بأقصر طريق. غير أن هذا الخطّ الزمني لا يخلو من دينامية داخلية، إذ تتصاعد الأحداث نحو لحظة الذروة، التي تمثّل قمة التوتر الدلالي في القصة، قبل أن تنفرج في الخاتمة (جينيت، 1997، صفحة 35).

وتُعدّ لحظة الذروة من أهم عناصر البنية السردية في قصص التابعين، إذ عندها يتكشّف الموقف الأخلاقي أو المعنى المقصود من الحكاية. وقد تأتي هذه اللحظة في صورة كلمة فاصلة، أو موقف صامت، أو فعل رمزي، كالبكاء، أو الإعراض، أو الدعاء. وتتميّز هذه اللحظة بالتركيز الشديد، حيث يُختزل المسار السردي كلّه في مشهد واحد، يُراد له أن يظلّ عالقًا في ذهن المتلقي بوصفه خلاصة التجربة (الغذامي، 2006، صفحة 123).

أما خاتمة القصة، فتؤدّي وظيفة تقويمية واضحة، إذ تُغلق المسار السردي بإبراز العبرة أو تثبيت الدلالة. وقد تأتي الخاتمة صريحة، في صورة تعليق أو دعاء أو حكم، وقد تأتي ضمنية، يُترك فيها للقارئ أن يستخلص المعنى من الموقف ذاته. وفي كلا الحالين، تُسهم الخاتمة في تحويل القصة من مجرّد حكاية إلى خطاب توجيهي، يربط بين السرد والسلوك (الجابري، 2023، صفحة 261).

يُروى أن التابعي الجليل طاووس بن كيسان دخل على الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، فلم يُبالِ بهيبة المجلس، فخلع نعليه عند الباب، وسلّم سلامًا عاديًا، ثم جلس دون أن يستأذن. فاستنكر الخليفة ذلك وقال: ما حملك على ما صنعت؟ فقال طاووس بهدوء: خشيتُ أن أقوم بين يديك قيامًا

تُعجب به نفسي فأهلك، وإنما العظمة لله. ثم قال له هشام: عظني. فقال: اتقِ الله، فإنك إن ظلمت عباد الله وجدت ربًّا لا يَظلم. ثم قام وخرج، وقد ترك بكلماته أثرًا بالغًا في نفس الخليفة، مجسِّدًا نموذج العالم الذي يواجه السلطة بثباتٍ وزهد (الزَّبيدي، 2016م، صفحة 138).

ويلاحظ أن كثيرًا من قصص التابعين تعتمد على أنماط بنائية متكرّرة، مثل بنية التحوّل، حيث تنتقل الشخصية من حال إلى حال، وبنية المواجهة (حسن، 2024، صفحة 33)، حيث يتقابل طرفان غير متكافئين، وبنية الاختبار، حيث يُمتحن الثبات على المبدأ. ولا يدلّ هذا التكرار على فقر فني، بل على تشكّل قوالب سردية مستقرة، تُسهم في ترسيخ النموذج الأخلاقي وتسهيل تلقيه (عباس، 1973، صفحة 48).

كما تتسم البنية السردية في هذه القصص بالاقتصاد الشديد في عدد الشخصيات، إذ غالبًا ما تقتصر الحكاية على شخصية مركزية واحدة، تُحاط بشخصية أو اثنتين تؤدّيان وظائف محدّدة داخل السرد. ويُسهم هذا التركيز في تعزيز وحدة الحكاية، ومنع تشتيت الدلالة، وجعل القارئ يوجّه انتباهه إلى التجربة الأساسية التي تحملها القصة (هامون، 1990، صفحة 19).

ولا يمكن إغفال دور الراوي في تشكيل مسار الحكاية، إذ لا يقتصر حضوره على نقل الحدث، بل يمتدّ إلى تنظيمه، وترتيبه، وتحديد بدايته، ونهايته. فالراوي، حتى حين يلتزم الحياد الظاهري، يوجّه السرد عبر الاختيار والحذف والتركيز، وهو ما يمنح القصة شكلها النهائي. ويكشف هذا الدور عن وعي سردي مبكر بأهمية البناء، حتى في إطار الرواية الدينية التي تتقدّم فيها الوظيفة التعليمية على الاعتبارات الفنية (الدوري، 2014، صفحة 41).

ومن خلال هذا التحليل، يتبيّن أن قصص التابعين تقوم على بنية سردية محكمة، وإن بدت بسيطة في ظاهرها، إذ تُدار الحكاية وفق مسار واضح، يربط بين البداية والذروة والخاتمة، ويُسهم في إنتاج معنى أخلاقي متماسك. وتشكّل هذه البنية أحد أبرز مظاهر الجمال الفني في السرد التابعي، وتمثّل الأساس الذي ستُبنى عليه عناصر أخرى، كالشخصيات والزمان والمكان، وهو ما سيتناوله المطلبان اللاحقان من هذا المبحث.

**المطلب الثاني: الشخصيات ووظائفها السردية**

تشكّل الشخصيات في قصص التابعين عنصرًا محوريًا في بناء الحكاية وتوليد الدلالة، إذ لا تُستدعى بوصفها كائنات سردية متخيَّلة، بل بوصفها ذوات تاريخية تتحوّل داخل السرد إلى نماذج أخلاقية ووظيفية. ومن هنا، فإن دراسة الشخصيات في هذا النوع من القصص لا تنفصل عن طبيعة السرد الديني المبكر، الذي يتقدّم فيه المعنى على التشخيص النفسي، والوظيفة على التعقيد الفني.

فالشخصية التابعية تُبنى لتؤدّي دورًا محدّدًا داخل الحكاية، وتسهم في إيصال الرسالة الأخلاقية أو العقدية التي تنهض عليها القصة (هامون، 1990، صفحة 15).

تتصدّر الشخصية المركزية المشهد السردي في معظم قصص التابعين، وغالبًا ما تكون هذه الشخصية عالمًا، أو زاهدًا، أو عابدًا، أو شخصية ذات مكانة روحية وعلمية. ولا تُقدَّم هذه الشخصية بوصفها فردًا له تاريخ طويل من التحوّلات النفسية، بل بوصفها حاملًا لقيمة محدّدة، كالثبات، أو الورع، أو الجرأة في قول الحق. ويُسهم هذا التقديم النموذجي في تحويل الشخصية من ذات فردية إلى رمز أخلاقي، يُراد له أن يُحتذى ويُستعاد في الذاكرة الجمعية (عباس، 2011، صفحة 61).

ويُلاحظ أن السرد التابعي يميل إلى اختزال ملامح الشخصية، فلا يعتني بوصف الهيئة أو السمات الجسدية، إلا نادرًا وبقدر ما يخدم الدلالة. فالوصف هنا وظيفي، يركّز على العلامات الدالّة، مثل البكاء، أو الصمت، أو الزهد في الملبس، أو الشجاعة في القول. ويكشف هذا الاختزال عن وعي سردي يفضّل الفعل والموقف على التوصيف، ويجعل الشخصية تتجلّى من خلال ما تفعل أو تقول، لا من خلال ما يُقال عنها (ضيف، 1995، صفحة 31).

إلى جانب الشخصية المركزية، تظهر شخصيات ثانوية تؤدّي وظائف سردية محدّدة، ولا تُستدعى لذاتها، بل لدورها في إبراز موقف الشخصية الرئيسية. فقد تكون هذه الشخصيات سلطانًا، أو قاضيًا، أو رجلًا من عامة الناس، أو تلميذًا، أو سائلًا. ويُسهم وجود هذه الشخصيات في خلق التوتر السردي، وإتاحة المجال للمواجهة أو الحوار أو الاختبار، وهي عناصر أساسية في دفع الحكاية نحو ذروتها (يقطين، 1989، صفحة 92).

وتؤدّي شخصية السلطان أو صاحب السلطة دورًا خاصًا في قصص التابعين، إذ غالبًا ما تُستدعى بوصفها الطرف المقابل للقيمة الأخلاقية التي يحملها التابعي. ففي هذا النوع من القصص، لا يكون السلطان شخصية تاريخية مفصّلة، بل رمزًا للسلطة الدنيوية، يُقاس عليه ثبات العالم أو الزاهد. ويُبنى التوتر السردي هنا على عدم التكافؤ بين الطرفين، ما يمنح موقف التابعي بعدًا دراميًا وأخلاقيًا في آنٍ واحد (الدوري، 2014، صفحة 27).

كما تظهر شخصية الراوي بوصفها عنصرًا سرديًا ضمنيًا، حتى حين لا تتدخّل مباشرة في الحدث. فالراوي، من خلال اختياره لما يُروى وما يُحذف، ومن خلال طريقة الإسناد والصياغة، يوجّه فهم القارئ للشخصيات، ويحدّد موقعها القيمي داخل الحكاية. ويكشف هذا الحضور الضمني عن دور الراوي بوصفه وسيطًا ثقافيًا، لا مجرّد ناقل محايد للخبر (ابن خلدون، 2004، صفحة 19).

ومن الجدير بالذكر يُروى أن أويس القرني، وهو من كبار التابعين، كان رجلًا خامل الذكر في الناس، عظيم القدر عند الله، عُرف ببرّه الشديد بأمّه. فلما قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه

إلى الحج، أخذ يسأل وفود اليمن: أفيكم أويس بن عامر؟ حتى لقيه، فقال له: أأنت أويس بن عامر من مراد ثم من قرن؟ قال: نعم. قال: كان بك برص فبرأتَ منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم. قال: لك والدة؟ قال: نعم. فقال عمر: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "يأتي عليكم أويس بن عامر... له والدة هو بها برّ، لو أقسم على الله لأبرّه". ثم قال له: استغفر لي. فطلب عمرُ الدعاءَ من رجلٍ لا يُعرف بين الناس، في مشهد يُجسّد انقلاب موازين القيمة في السرد التابعي، حيث تتقدّم الخمولية والزهد على الشهرة والسلطان (مسلم بن الحجاج، 1991، صفحة 1969).

وتتجلّى الوظيفة السردية للشخصيات بوضوح في اعتماد الحوار أداةً رئيسة لتقديمها، حيث تُعرَف الشخصيات من خلال أقوالها أكثر مما تُعرَف من خلال الوصف المباشر. فالجملة الحوارية في قصص التابعين غالبًا ما تكون قصيرة، حاسمة، ومشحونة بالدلالة، وتُستخدم لإبراز الحكمة أو الموقف الأخلاقي. ويُسهم هذا الأسلوب في تكثيف السرد، وجعل الشخصية تتجلّى في لحظة قول فاصلة (عباس، 1973، صفحة 53).

**المطلب الثالث: الزمان والمكان في تشكيل الدلالة**

يُعدّ الزمان والمكان من العناصر البنيوية الأساسية في تشكيل الدلالة السردية في قصص التابعين، إذ لا يأتي حضورهما بوصفه إطارًا محايدًا تجري داخله الأحداث، بل بوصفهما عنصرين فاعلين يسهمان في إنتاج المعنى وتوجيه التلقي. ففي السرد الديني المبكر، تُستثمر الأبعاد الزمانية والمكانية لتكثيف القيمة الأخلاقية، وربط الحكاية بسياقها الواقعي، وتحويل الحدث الجزئي إلى نموذج قابل للتعميم. ومن ثمّ، فإن دراسة الزمان والمكان في هذا النوع من القصص تتيح فهمًا أعمق لجماليات البنية الفنية التي تقوم عليها (باختين، 1987، صفحة 12).

يتّسم الزمن السردي في قصص التابعين بالبساطة والخطّية، حيث تتقدّم الأحداث في تسلسل زمني واضح، يخلو في الغالب من التعقيد أو التداخل. ويعود ذلك إلى طبيعة الوظيفة التعليمية التي ينهض بها السرد، إذ يُراد للحدث أن يُفهم بسهولة، وأن تقود أجزاؤه إلى العبرة دون تشويش. غير أن هذه الخطّية لا تعني فقرًا زمنيًا، بل تعبّر عن اختيار واعٍ يُقدّم الوضوح على التشابك، ويجعل الزمن أداة لخدمة المعنى لا غاية في ذاته (جينيت، 1997، صفحة 39).

ويُلاحظ أن قصص التابعين تميل إلى التركيز على لحظات زمنية بعينها، تُمنح كثافة دلالية عالية، مثل لحظة التوبة، أو لحظة المواجهة، أو لحظة الاحتضار. ففي هذه اللحظات، يتوقّف الزمن السردي عن الامتداد، ويتحوّل إلى لحظة مشهدية مكثّفة، تُختزل فيها التجربة الإنسانية كلّها. ويُسهم هذا التركيز في تحويل الزمن من مجرّد تسلسل للأحداث إلى حامل للمعنى، حيث تُصبح اللحظة الواحدة أثقل دلالة من مسار زمني طويل (يقطين، 1989، صفحة 101).

كما يحضر الزمن في قصص التابعين بوصفه زمنًا قيميًا، لا تاريخيًا صرفًا، إذ لا تُحدَّد التواريخ غالبًا بدقّة، ولا يُعنى السرد بتثبيت اليوم أو السنة، بقدر ما يُعنى بتحديد اللحظة الأخلاقية. فالزمن هنا يُقاس بما يحمله من اختبار أو عبرة، لا بما يقدّمه من معلومات تاريخية. ويكشف هذا التوجّه عن نزعة سردية ترى في الزمن وسيلة لتكريس القيمة، لا لتوثيق الحدث فحسب (الجابري، 2023، صفحة 268).

أما المكان، فيؤدّي دورًا رمزيًا بارزًا في تشكيل الدلالة السردية، إذ لا يُذكر المكان في قصص التابعين اعتباطًا، بل يُختار بعناية لحمْله دلالة قيمية أو روحية. فالمسجد، على سبيل المثال، لا يُستدعى بوصفه موقعًا جغرافيًا فحسب، بل بوصفه فضاءً للعبادة والعلم والخشوع، حيث تتجلّى القيم العليا التي يحملها السرد. ويُسهم هذا الاختيار المكاني في تعزيز الانسجام بين الفضاء السردي والمعنى المقصود (عباس، 2011، صفحة 69).

ويُلاحظ أن الوصف المكاني في قصص التابعين يتّسم بالاقتصاد الشديد، إذ لا يُعنى السرد بتفصيل الملامح أو رسم المشاهد، بل يكتفي بالإشارة إلى المكان بوصفه علامة دلالية. ويُسهم هذا الأسلوب في الحفاظ على إيقاع السرد، ومنع الاستطراد، مع ترك مساحة للمتلقي كي يملأ الفراغات بما ينسجم مع خبرته الثقافية والدينية (هامون، 1990، صفحة 27).

ويتعلق الزمان والمكان في قصص التابعين تعلقًا وثيقًا، حيث تُحدَّد دلالة اللحظة الزمنية من خلال الفضاء الذي تقع فيه، وتُفهم قيمة المكان من خلال الحدث الزمني الذي يحتضنه. فالمسجد في زمن الفتنة ليس كالمسجد في زمن السكينة، ومجلس السلطان في لحظة المواجهة يختلف دلاليًا عن المجلس ذاته في لحظة العطاء أو الإكرام. ويكشف هذا التعالق عن بنية سردية واعية تستثمر العنصرين معًا لتكثيف المعنى (باختين، 1987، صفحة 45).

ومن خلال هذا التوظيف الدلالي للزمان والمكان، تتحوّل قصص التابعين إلى نصوص ذات بعد رمزي، تتجاوز حدود الواقعة التاريخية، وتُنتج معنى أخلاقيًا قابلًا للتكرار والاستدعاء. فالزمان لا يُستدعى ليُقاس، والمكان لا يُذكر ليُوصَف، بل ليشكّلا معًا إطارًا قيميًا يحتضن التجربة السردية، ويمنحها عمقها وتأثيرها (الغذامي، 2006، صفحة 132).

وبذلك، تتجلّى جماليات الزمان والمكان في قصص التابعين بوصفها عناصر فنية فاعلة، تُسهم في بناء الحكاية، وتوجيه الدلالة، وتعزيز الأثر الوعظي والجمالي في آنٍ واحد. ويُكمل هذا التحليل صورة البنية الفنية للسرد التابعي، ويمهّد للانتقال إلى المبحث الثالث، الذي يتناول الأسلوب السردي وتطوّر الرواية الدينية المبكرة.

## المبحث الثالث: الأسلوب السردي وتطوّر الرواية الدينية المبكرة

### المطلب الأول: اللغة السردية وخصائص التعبير الفني

تُعدّ اللغة السردية في قصص التابعين أحد أبرز المفاتيح لفهم طبيعة الرواية الدينية المبكرة، إذ تتشكّل هذه اللغة في منطقة وسطى بين الخطاب التعليمي والخطاب الفني، وبين الأداء الشفوي والصياغة المكتوبة. ولا يمكن مقاربة الأسلوب اللغوي في هذا السرد بمعايير البلاغة الأدبية اللاحقة، لأن اللغة هنا تخضع لمنطق الوظيفة قبل الزينة، ولمنطق التأثير قبل التخييل. ومع ذلك، فإن هذه اللغة تحمل سمات تعبيرية واضحة، تكشف عن وعي مبكر بإمكانات القول السردي وقدرته على بناء المعنى وتوجيه التلقي (الغذامي، 2006، صفحة 141).

تتّسم اللغة السردية في قصص التابعين بالبساطة والوضوح، حيث تُفضَّل الألفاظ المألوفة والتراكيب المباشرة، وتُجنَّب الغرابة والتكلّف. ويعود هذا الاختيار إلى طبيعة الجمهور المتلقّي، الذي كان متنوّعًا في مستواه الثقافي، وإلى طبيعة الوظيفة الوعظية والتعليمية التي ينهض بها السرد. فاللغة هنا ليست مجالًا للاستعراض البلاغي، بل أداة لنقل المعنى بأقصى درجات الوضوح، بما يضمن وصول الرسالة دون لبس أو تعقيد (ضيف، 1995، صفحة 19).

غير أن هذه البساطة لا تعني الفقر التعبيري، بل تكشف عن نمط خاص من الجمال القائم على التكثيف والاقتصاد. فالجملة السردية في قصص التابعين غالبًا ما تكون قصيرة، متوازنة، محمولة على فعل أو قول ذي دلالة واضحة. ويُسهم هذا الإيجاز في تعزيز قوة العبارة، وجعلها قابلة للحفظ والتداول، وهو ما يتّسق مع طبيعة الثقافة الشفوية التي شكّلت الإطار الأوّل لانتقال هذه القصص (عباس، فن السيرة، 2011، صفحة 74).

ويظهر الأثر الشفوي بوضوح في إيقاع اللغة السردية، حيث تتكرّر بعض الصيغ، وتُستعاد تراكيب بعينها، بما يخلق نوعًا من التوازي اللفظي الذي يُسهم في تثبيت المعنى. ولا يُعدّ هذا التكرار عيبًا أسلوبيًا، بل هو جزء من آليات الأداء الشفهي، التي تعتمد على التوكيد والترديد لضمان رسوخ الفكرة في الذهن. ويكشف هذا الإيقاع عن علاقة وثيقة بين السرد التابعي والخطاب الوعظي والخطابي في الثقافة الإسلامية المبكرة (باختين، 1987، صفحة 55).

كما تتداخل اللغة السردية في قصص التابعين تداخلًا وثيقًا مع اللغة القرآنية والحديثية، سواء من خلال الاقتباس المباشر أو من خلال التضمين الأسلوبي والدلالي. فالقرآن الكريم يشكّل المرجعية العليا للبيان، وتنعكس أنماطه التعبيرية في بنية الجملة، واختيار الألفاظ، وطريقة بناء المشهد. ويُسهم هذا التداخل في إضفاء سلطة رمزية على السرد، ويجعل القصة امتدادًا للخطاب المقدّس، لا نصًا منفصلًا عنه (أركون، 1990، صفحة 81).

ومع تطوّر الرواية الدينية المبكرة، ولا سيما في مرحلة التدوين، بدأت اللغة السردية تشهد قدرًا من التوسّع والتهذيب، حيث أُعيدت صياغة بعض القصص بأسلوب أكثر انتظامًا، وأُدرجت في سياقات نصّية أوسع. غير أن السمات الأساسية، كالبساطة والتكثيف والتداخل مع الخطاب المقدّس، ظلّت حاضرة، بما يدلّ على استقرار نموذج لغوي خاص بالسرد الديني، سيؤثّر لاحقًا في كتب السير والتراجم والوعظ (الدوري، 2014، صفحة 47).

وبناءً على ذلك، يمكن القول إن اللغة السردية في قصص التابعين تمثّل مرحلة تأسيسية في تاريخ التعبير السردي العربي، حيث تشكّلت فيها معايير أسلوبية خاصّة، تقوم على الوضوح والاقتصاد والإيقاع والتوجيه القيمي. وهذه الخصائص لا تعبّر عن محدودية فنية، بل عن انسجام عميق بين اللغة ووظيفة السرد في سياقه الديني والثقافي. ويمهّد هذا التحليل للانتقال إلى المطلب الثاني من هذا المبحث، الذي يتناول الحوار والوصف والإيقاع السردي بوصفها آليات أسلوبية مكمّلة. (حسين ع.، 2024، الصفحات 82–84)

**المطلب الثاني: الحوار والوصف والإيقاع السردي**

يُشكّل الحوار في قصص التابعين أحد أهم الأدوات الأسلوبية التي يُبنى عليها السرد الديني المبكر، إذ لا يُستعمل بوصفه عنصرًا زخرفيًا أو وسيلة لتلوين الحكاية، بل يُوظَّف بوصفه آلية مركزية لإنتاج المعنى وتكثيف الدلالة. فالحوار في هذا السياق غالبًا ما يأتي مقتضبًا، حاسمًا، ومشحونًا بالقيمة الأخلاقية، ويُستخدم لكشف الموقف أو تثبيت الحجة أو إظهار المفارقة، لا لتبادل الآراء على نحو مطوّل. ومن هنا، فإن الجملة الحوارية تؤدّي وظيفة بنائية تتجاوز حدود التواصل اللفظي إلى صناعة لحظة سردية فاصلة (يقطين، 1989، صفحة 118).

ويتّسم الحوار في قصص التابعين بطابعه الحِجاجي، حيث يقوم على سؤال وجواب، أو أمر ونهي، أو اعتراض وردّ، بما يعكس طبيعة الخطاب الديني القائم على البيان والإقناع. وغالبًا ما يكون أحد طرفي الحوار شخصية ذات سلطة دنيوية أو اجتماعية، في مقابل شخصية تابعية تمثّل المرجعية الأخلاقية أو الدينية. ويُسهم هذا التفاوت في خلق توتّر سردي، يجعل الحوار ساحة لإبراز الثبات على المبدأ، وقول الحق، والزهد في الدنيا (عباس، فن السيرة، 2011، صفحة 82).

كما يُلاحظ أن الحوار في هذه القصص لا يكثر من الأصوات، بل يقتصر غالبًا على صوتين، بما يحافظ على تركيز السرد، ويمنع تشتيت الدلالة. ويُقدَّم الحوار دون مقدمات طويلة، إذ يدخل السرد مباشرة إلى القول الدال، وكأن اللغة تُنتقى بعناية لتؤدّي وظيفتها بأقصر مسار. ويكشف هذا الأسلوب عن وعي مبكر بأهمية الاقتصاد في التعبير، وبتأثير الكلمة حين تُلقى في موضعها المناسب (ضيف، 1995، صفحة 41).

أما الوصف، فيأتي في قصص التابعين محدودًا ومقتصدًا، ويؤدّي وظيفة دلالية لا تصويرية. فلا يهدف الوصف إلى رسم المشهد أو تفصيل الملامح، بل إلى الإشارة إلى علامة أو هيئة أو حالة تُسهم في بناء المعنى. فذكر البكاء، أو تغيّر الوجه، أو الصمت، أو الانصراف، يُعدّ كافيًا لإيصال الحالة الشعورية دون الحاجة إلى توسّع بياني. ويكشف هذا الأسلوب عن نزعة سردية ترى في الإيحاء قيمة أعلى من الاستطراد.

ويظهر الوصف في هذا السرد مرتبطًا بالفعل أكثر من ارتباطه بالمكان أو الهيئة، إذ يُوصف الفعل في لحظة وقوعه، لا الحالة في سكونها. ويُسهم هذا الربط بين الوصف والحركة في تعزيز حيوية السرد، وجعل الحدث حاضرًا في ذهن المتلقي. كما ينسجم هذا النمط مع طبيعة القصص التي تقوم على الفعل الأخلاقي بوصفه جوهر التجربة الإنسانية (هامون، 1990، صفحة 33).

ويُعدّ الإيقاع السردي من الخصائص الأسلوبية البارزة في قصص التابعين، حيث يتشكّل الإيقاع من تتابع الجمل القصيرة، وتكرار بعض الصيغ، وتوازن العبارات. ولا يُبنى هذا الإيقاع على التنويع الموسيقي اللفظي، بل على انتظام الأداء وتكثيف المعنى. ويُسهم هذا النسق في خلق حالة من التلقي المشحون بالانتباه، ويجعل السرد قريبًا من الخطاب الوعظي الذي يعتمد على الإيقاع لضمان التأثير (باختين، 1987، صفحة 63).

ويتجلّى الإيقاع السردي كذلك في توزيع السرعة والبطء داخل الحكاية، إذ يمرّ السرد سريعًا على المقدمات، ويتباطأ عند اللحظة المركزية، سواء أكانت كلمة قيلت، أو موقفًا وقع، أو دعاءً رُفع. ويُسهم هذا التباطؤ في إبراز الذروة الدلالية، ومنحها وزنًا خاصًا داخل المسار الحكائي. ويكشف هذا التوزيع عن وعي سردي يُدرك أثر الزمن والإيقاع في توجيه الانتباه (الغذامي، 2006، صفحة 148).

وبذلك، يتّضح أن الأسلوب السردي في قصص التابعين لا يقوم على عنصر واحد، بل على تآزر تقنيات لغوية وسردية متعدّدة، تُسهم مجتمعة في إنتاج خطاب ديني مؤثّر وجمالي في آنٍ واحد. ويمهّد هذا التحليل للانتقال إلى المطلب الثالث من هذا المبحث، الذي يتناول تطوّر القصص التابعية وأثرها في تشكّل السرد الإسلامي اللاحق.

**المطلب الثالث: تطوّر القصص التابعية وأثرها في السرد الإسلامي**

تمثّل قصص التابعين مرحلة مفصلية في تاريخ تطوّر الرواية الدينية في الثقافة الإسلامية، إذ انتقلت خلالها الحكاية من طور الخبر الشفهي المرتبط بالسياق التعليمي المباشر إلى طور السرد المدوَّن الذي بدأ يكتسب وعيًا بنيويًا وأسلوبًا أكثر استقرارًا. ولا يمكن فهم هذا التطوّر بمعزل عن التحوّلات المعرفية والثقافية التي شهدها المجتمع الإسلامي في القرون الأولى، حيث تبلورت علوم

الرواية، واتّسعت حركة التدوين، وتنوّعت وظائف السرد الديني بين التعليم والتقويم والتأثير الوجداني (الدوري، 2014، صفحة 52).

في مرحلتها الأولى، ارتبطت القصص التابعية ارتباطًا وثيقًا بالثقافة الشفوية، فكانت تُروى في مجالس العلم والوعظ بوصفها أخبارًا تُستشهد بها لتثبيت معنى أو دعم موقف. وفي هذا السياق، لم تكن القصة تُنقل بصيغة ثابتة، بل كانت تخضع للتفاوت في الطول والاختصار، تبعًا للسياق والراوي والمقام. وقد أسهم هذا التداول الشفهي في تثبيت البنية العامة للقصة، مع السماح بمرونة في الصياغة، وهو ما سيترك أثره لاحقًا في تعدّد روايات القصة الواحدة (عباس، 2011، صفحة 89).

ومع بدء حركة التدوين المنهجي في القرن الثاني الهجري، دخلت القصص التابعية مرحلة جديدة من التطوّر، حيث أُدرجت في المصنّفات الحديثية والتفسيرية والفقهية، ثم في كتب الطبقات والتراجم. وفي هذا الانتقال، بدأت القصة تفقد شيئًا من مرونتها الشفوية، لتكتسب قدرًا من الاستقرار النصّي، نتيجة التزام المؤلّفين بضبط الرواية وترتيبها داخل أبواب موضوعية. وأسهم هذا التثبيت في إبراز ملامح البنية السردية، وجعل القصة أقرب إلى النص المكتوب ذي الحدود الواضحة (جمعة، 2023، الصفحات 45–47).

ومع تزايد الاهتمام بالسير والتراجم، بدأت القصص التابعية تُدرج ضمن مسارات حياتية أوسع، حيث لم تعد القصة حدثًا معزولًا، بل جزءًا من سيرة شخصية تُروى عبر مراحل متعددة. وأسهم هذا الإطار السيري في توسيع أفق السرد، وربط الأحداث بعضها ببعض، ومنح الشخصية عمقًا زمنيًا أكبر، وإن ظلّ التركيز قائمًا على اللحظات الدالّة. ويُعدّ هذا التطوّر خطوة مهمّة نحو تشكّل السرد الترجمي بوصفه جنسًا له خصائصه الفنية (ابن سعد، 2017، صفحة 8).

وقد امتدّ أثر القصص التابعية إلى أشكال سردية لاحقة في التراث الإسلامي، حيث يمكن رصد حضورها في كتب المواعظ، وأدب الحكم، بل وفي بعض أنماط القصص الشعبي ذي الطابع الديني. ففي هذه النصوص، تُستعاد القصة التابعية بوصفها نموذجًا جاهزًا، يُعاد إنتاجه وصياغته بما ينسجم مع أفق التلقي الجديد. ويكشف هذا الامتداد عن قدرة السرد التابعي على الاستمرار والتكيّف، وعن رسوخه في الذاكرة الثقافية الإسلامية (ضيف، 1995، صفحة 49).

كما أسهم السرد التابعي في ترسيخ عدد من القوالب السردية التي ستظلّ فاعلة في السرد الإسلامي اللاحق، مثل قصة المواجهة مع السلطة، وقصة التوبة والتحوّل، وقصة الزهد والاعتزال، وقصة الموت والوصية. وقد أصبحت هذه القوالب أنماطًا متكرّرة، تُستدعى في سياقات مختلفة، وتُملأ بمضامين جديدة، دون أن تفقد بنيتها الأساسية. ويُعدّ هذا التكرار دليلًا على تشكّل تقليد سردي مستقر، لا مجرّد تكرار آلي (يقطين، 1989، صفحة 131).

ومن الناحية الأسلوبية، مهّدت القصص التابعية الطريق لظهور لغة سردية دينية لها خصائصها، تقوم على الوضوح، والتكثيف، والتوجيه القيمي، مع الاستفادة من الحوار والإيقاع والوصف الوظيفي. وقد انتقلت هذه السمات إلى كثير من المصنّفات اللاحقة، لا سيما في كتب الزهد والسير، حيث ظلّ النموذج التابعي حاضرًا بوصفه مرجعًا ضمنيًا للأسلوب والمضمون (الغذامي، 2006، صفحة 154).

ويكشف تتبّع تطوّر القصص التابعية عن وعي مبكر بأهمية السرد في بناء الوعي الديني والاجتماعي، إذ لم تكن هذه القصص مجرّد تسجيل للماضي، بل أدوات فاعلة في تشكيل النموذج الأخلاقي، وضبط السلوك، ومقاومة تحوّلات الواقع. ومن هنا، فإن أثرها لا يقتصر على الجانب الفني، بل يمتدّ إلى البنية الثقافية التي تشكّل فيها السرد الإسلامي بوصفه خطابًا موجّهًا وفاعلًا (الجابري، 2023، صفحة 281).

## الخاتمة:

خلص هذا البحث إلى أن قصص التابعين تمثّل نموذجًا سرديًا مبكرًا أسهم بفاعلية في تشكّل الرواية الدينية في الثقافة الإسلامية، حيث جاءت هذه القصص في منطقة وسطى بين الخبر التاريخي والحكاية ذات البعد الفني، دون أن يخلّ هذا التداخل بوظيفتها المعرفية أو الأخلاقية. وقد كشفت الدراسة أن السرد التابعي لم يكن عفويًا أو بسيطًا بالمعنى السلبي، بل قام على بنية سردية واضحة، وأساليب تعبيرية منسجمة مع طبيعة المرحلة ووظائف الخطاب الديني.

وبيّنت نتائج البحث أن قصص التابعين تقوم على مسار حكائي خطّي يتّسم بالتكثيف والتركيز على اللحظة الدالّة، وأن الشخصيات فيها تُبنى بوصفها نماذج وظيفية تحمل قيمًا أخلاقية محدّدة، لا بوصفها ذوات نفسية معقّدة. كما أظهرت الدراسة أن الزمان والمكان يؤديان دورًا دلاليًا فاعلًا، حيث يُستثمران لتكثيف المعنى وربط الحدث بالسياق القيمي، لا لمجرّد التحديد التاريخي أو الوصفي.

وأبرز البحث كذلك أن اللغة السردية في قصص التابعين اتّسمت بالبساطة والاقتصاد والتداخل مع الخطاب القرآني والنبوي، وأن الحوار والوصف والإيقاع شكّلوا أدوات أسلوبية أساسية في بناء التأثير الوعظي والجمالي. وانتهت الدراسة إلى أن القصص التابعية أسهمت في ترسيخ قوالب سردية ظلّت فاعلة في السرد الإسلامي اللاحق، ولا سيما في كتب الزهد والسير والتراجم، مما يجعلها مرحلة تأسيسية في تاريخ السرد العربي الإسلامي وجديرة بمزيد من الدراسة والتحليل.

### أولًا: النتائج

1. خلص البحث إلى أنّ قصص التابعين لا تقتصر على بعدها الوعظي أو الديني، بل تتضمّن بنية سردية فنية واضحة تقوم على التنظيم الحكائي، وتسلسل الأحداث، وبناء الشخصيات.

2. أظهرت الدراسة أنّ جماليات السرد في قصص التابعين تتجلّى في الاقتصاد اللغوي، وقوة المشهد، والتكثيف الدلالي، بما يخدم الوظيفة التأثيرية للنص.

3. تبيّن أنّ هذه القصص تمثّل مرحلة انتقالية مهمّة في تطوّر الرواية الدينية المبكرة، حيث بدأت تتشكّل ملامح السرد العربي قبل تبلوره في الأجناس الأدبية اللاحقة.

4. كشفت القراءة الفنية أنّ الراوي في قصص التابعين يؤدي دورًا محوريًا في توجيه المتلقي، من خلال المزج بين السرد والخطاب التفسيري أو الوعظي.

5. أكّد البحث أنّ قصص التابعين أسهمت في ترسيخ تقاليد سردية أثّرت في أنماط القصص الديني والتاريخي في التراث العربي الإسلامي.

**ثانيًا: التوصيات**

1. الدعوة إلى دراسة قصص التابعين من منظور سردي حديث، بعيدًا عن الاقتصار على المقاربات التاريخية أو الدينية.

2. إنجاز دراسات مقارنة بين قصص التابعين والقصص القرآني والنبوي لرصد تطوّر تقنيات السرد.

3. اقتراح تعميق البحث في الآليات السردية المعتمدة في قصص التابعين، من حيث بناء الحبكة، وتنظيم الزمن، وصياغة الشخصيات، للكشف عن الخصائص الفنية للرواية الدينية المبكرة.

4. إدراج قصص التابعين ضمن دراسات الأدب السردي العربي المبكر بوصفها نصوصًا ذات قيمة فنية.

5. تشجيع الأبحاث التي تربط بين السرد الديني المبكر وتطوّر القصة العربية لاحقًا.

## قائمة المصادر والمراجع:

1. إبراهيم، عبد الله. (2010). السردية العربية: بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي، ط1. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون.
2. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. (2004). المقدمة، ط 1، جـ 1. بيروت: دار الفكر.
3. ابن سعد، محمد بن سعد. (2017). الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، طـ 3، جـ 1. بيروت: دار صادر.
4. أبو نعيم الأصـفهاني، أحمد بن عبد الله. (2023). حلية الأولياء وطبقات الأصـفياء، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط 4، جـ 1. بيروت: دار الكتب العلمية.

5. أركون، محمد. (1990). الفكر الإسلامي: قراءة علمية، ترجمة: هاشم صالح، طـ 1. بيروت: مركز الإنماء القومي.
6. باختين، ميخائيل. (1987). أشكال الزمان والمكان في الرواية، ترجمة: يوسف حلاق، طـ 1. الدار البيضاء: دار توبقال.
7. الجابري، محمد عابد. (2023). تكوين العقل العربي، طـ 16. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
8. جمعة، مصطفى عطية. (2023). السرد في التراث العربي: رؤية معرفية جمالية. مصر – الجيزة : الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون ).
9. جواد، زينب. (2024). من المتخيل الى الافتراضي تحول سرديات المكان في الرواية الحديثة. مجلة ابن خلدون للدراسات والأبحاث, 4(11). https://doi.org/10.56989/benkj.v4i11.1312
10. جينيت، جيرار. (1997). خطاب الحكاية، ترجمة: محمد معتصم، طـ 1. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
11. حسن، محمد إبراهيم عبد الله. (2024). الصراع في رواية فاليوم 10 لخضير فليح الزيدي. مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، المجلد 19، العدد 2، الجزء الأول.
12. حسين، طه. (2018). في الأدب الجاهلي، ط 21. القاهرة: دار المعارف.
13. حسين، علي هادي حسن. (2024). تقانة الكولاج السردي في رواية (مقامات إسماعيل الذبيح) د. عبد الخالق الركابي. مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، المجلد 19، العدد 2، الجزء 2.
14. الدوري، عبد العزيز. (2014). دراسات في العصور العباسية الأولى، طـ 3. بيروت: دار الطليعة.
15. الذهبي، محمد حسين. (2015). التفسير والمفسرون، ج 1، ط 7. القاهرة: دار الحديث.
16. الرّيْحاني، محمد. (2021). السرد الوجيز في المغرب (رواد التجربة مع نماذج مترجمة). مجلة ابن خلدون للدراسات والأبحاث, 1(2). https://doi.org/10.56989/benkj.v1i2.684
17. الزَّبيدي، أبو الفيض محمد مرتضى الحسيني (ت 1205هـ). (2016). إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، ط 1. بيروت: دار الكتب العلمية.
18. الزهراني، أميرة. (2023). لذّة السرد: مقاربة تحليليّة. مجلة ابن خلدون للدراسات والأبحاث, 3(9). https://doi.org/10.56989/benkj.v3i9.662

19. صالح، بشرى موسى. (2013). السرد في كتب الحديث النبوي: مقاربة سردية، طـــ 1. عمّان: دار كنوز المعرفة العلمية.
20. ضيف، شوقي. (1995). الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط 12. القاهرة: دار المعارف.
21. عباس، إحسان. (1973). تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط 3. بيروت: دار الثقافة.
22. عباس، إحسان. (2011). فن السيرة، ط 2. بيروت: دار صادر.
23. الغذامي، عبد الله. (2006). الخطيئة والتكفير: من البنيوية إلى التشريحية، طـــ 6. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
24. مسلم بن الحجاج، أبو الحسين. (1991). صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، جـ 4، ط 1. القاهرة: دار الحديث.
25. هامون، فيليب. (1990). سميولوجية الشخصيات الروائية، ترجمة: سعيد بنكراد، طـــ 1. الدار البيضاء: أفريقيا الشرق.
26. يقطين، سعيد. (1989). تحليل الخطاب الروائي، ط 3. بيروت: المركز الثقافي العربي.